جامعة المنصورة
كليـة الآداب

اثر اللحـــنُ في العربيـــةِ
(أسبابهُ وعلاجهُ)

إعـــداد
دكتور / غانم عودة شرهان
شعبة العلوم الأساسية
كلية الزراعة - جامعة بغداد

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصـورة
العدد الواحد و الستون – أغسطس ٢٠١٧

اثر اللحــنُ في العــربيـــةِ
(أسبابـهُ وعلاجهُ)

د. غانم عودة شرهان

ملخص البحث :

كان اللحن من الأخطار الجسيمة التي هددت سلامة العربية ودعت المخلصين من علمائها إلى اتخاذ الخطوات الضابطة لها ، ففرزت لنا تلك الجهود المخلصة قواعد وضوابط عصمت اللسان والقلم من الانزلاق والانحراف .

واللحن ظاهرة طرأت على المجتمع العربي وتشتت فيه بعد دخول الأعاجم من غير العرب في الإسلام ، ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من إسلامها ، تبرع في نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة ، حتى فتحت المدائن ، ومصرت الأمصار ، ودونت الدواوين ، واختلط العربي بالنبطي ، والتقى الحجازي بالفارسي ، ودخل الدين أخلاط الأمم وسواقط البلدان فوقع الخلل في الكلام وبدأ اللحن في ألسنة العوام ، فاللغويون العرب اعتبروا اللحن عيباً من عيوب الكلام ، إذ إن المجتمع العربي ينتقص من يلحن ، بل وينتقص من يفهم الكلام الملحون ، وهذا ما أثار علماء العربية ، وهال ذلك أولي الأمر ، فخافوا أن يتسرب ذلك إلى القرآن الكريم والحديث الشريف ، فأسرع المفكرون والعلماء إلى وضع قواعد يهتدي بها لحفظ اللغة من هذا الخطر الداهم ، وقد هداهم تفكيرهم إلى وضع علمي النحو واللغة .

ففزعوا إلى القرآن ضبطاً بالنقل والتشكيل حتى يضمنوا له الأداء الصحيح ، وخاصة ممن لم يستقم لهم اللسان العربي من الناشئة الذين نشأوا في غمار الأعاجم ، كما أتجه قوم إلى الحديث يحمونه ، وآخرون إلى فتاوى الصحابة والتابعين يدونونها ، واتجه قوم إلى اللغة يجمعونها ، وكانت مهمتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب وتحديد معانيها ، واهتم قوم بالأدب وهو مأثور الشعر والنثر العربي يجمعونه .

وهكذا كان شيوع اللحن سبباً في إثارة العلماء في كل ناحية ، وخاصة علماء اللغة والأدب .

Abctract:

The Tune is considered one of the most dangerous that threat the Arabic language . Many efforts are put to Keep Arabic Spoken and Written from any changes or decline .

After entering of Persian to Islam the tune appeared in Arabic language . Many people entered Islam from different Countries and They have different languages and accents . There fore the tune appeared in spoken Arabic language .

Arabic linguistics regarded the tune is one of the worst thing in speech . They are a faid of transferring of tune to Quran and prophets words . They put rules to Keep the correct speech

كيف بدأ اللحن ؟

بعد انتشار الإسلام ، واختلاط العرب بأمم أعجمية ، ونتيجة الفتوحات الإسلامية ، ظهرت عوامل فساد تدبُ إلى اللغة العربية ، وحدث اللحن في الألسنةِ ، وتسربَ إلى الناشئةِ ، وساد بين العامة من الناس ، حتى انسحب على الفصحاء من العرب ، فأنتبه له رجال الدولة ، وشمّر العلماء عن ساعدِ الجدِّ ، يبتغون الصلاح ، ويهدفون إلى الإصلاح ، ويرمون السلامة ، وقد جعلوا القرآن نصب أعينهم ، غايتهم صيانتهُ وحفظهُ ، خشية أن يصيبه تحريف أو تصحيفٍ ، وهم واثقون من قولهِ تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا لهُ لحافظون)[1] .

فاختلاطُ العرب بالشعوب عامةٍ ، وعلى فترات طويلة ، ودخولِ هذهِ الشعوبِ في الإسلامِ ، والمصاهرةِ التي جرت بين قسم منهم وبين جماعة من العرب ، أسبابٌ كلها أدت إلى خطر جسيم ، استهدفَ سلامة اللغة العربية ، مما حدا ببعض الألسن إلى أن تنحرف عن سليقة العربي وفطرتهُ ، يذكر الزبيدي في طبقاته ((ولم تزل العربُ بالأمصارِ تنطق على سجيتها في صدر إسلامها

، وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس أفواجاً ، وأقبلوا عليه إرسالاً ، واجتمعت فيه الألسنةُ المتفرقةُ ، واللغاتُ المختلفةُ ، فنشأ الفسادُ في العربية))[٢] .

إنَّ مشكلةَ اللحنُ لم تكن حديثةَ العهدِ في العربيةِ ولم تكن هذه المشكلةَ في عهدِ أبي الأسودِ بالرغم من أنها كانت دافعاً قوياً للتفكير في إيجاد ضوابط لسانيةٍ تحفظُ اللسانَ من الخطأ ، إنما قضية اللحن يمتد تاريخها إلى أبعدِ من زمن أبي الأسود بزمن طويل يمتد في عصور ما قبل الإسلام ، فالعرب كانوا يخالطون غيرهم من الأمم في حواضر اليمن والحجاز والعراق والشام قبل ظهور الإسلامِ ولا يجادلُ أحدُ في أنَّ الحواضرَ التي تختلطُ الأجناس فيها تختلطُ ألسنتُها وتنشأ لهجةُ يتكلم فيها أبناءُ تلكَ الحواضرِ فيها مزيجُ من الأساليب والألفاظِ العربية وغيرها وأقربُ دليلُ على ذلكَ أن اللغويين الأوائل حين جمعوا اللغة واستقروها لم يعتمدوا على كثير من القبائل العربيةِ التي سكنت اليمن لقربها من الأحباش أو عمان لمخالطة أهلها الفرسَ والهنود والشام ، ومصرَ لمخالطةِ أهلها الرومَ والقبَط[٣] .

لقد حُظيت العربيةُ بعنايةٍ واهتمامٍ ، منذ عَصرِ ما قبل الإسلامِ ، حيثُ ، كان للأسواقِ الأدبيةِ مكانةُ سامقةُ ، ودورُ متميزُ في سفرِ تاريخ أدبنا العربي ، هذه الأسواقُ بمثابةِ مهرجاناتٍ شعريةٍ وخطابةٍ ، يتبارى فيها الشعراءُ والخطباءُ من كلَ حدبٍ وصوبٍ ، فتبرزُ أسماءُ ، وتشيعُ قصائدٌ ، فتحفظها الألسنةُ عِبرَّ الصحراءِ ، وتَصدحُ خطبٌ ، فتنطلقُ بها الركبانُ في الآفاقِ .

هذه المخالطةُ يرجعُ عهدها إلى قديم الزمانِ . وبعدَّ ظهور الإسلامِ ورد اللحنُ والشكوى منه عند الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقد روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيمن لحن في مجلسهِ قولهِ : ارشدوا أخاكم فإنه قد ضلَّ[٤] ، ويشير الدكتور إبراهيم السامرائي إلى الصيغة التي بدأ بها العربي يهتم بلغته فيقول : ((وكان العناية بالشعر والحرص على رواتبهِ وحفظهِ ودرسهِ كان بدايةُ العنايةِ باللغةِ ودرسِها وجمعِها والاهتداء إلى نوادرها وأوابدها))[٥] .

وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حين كتب إلى أبي موسى الأشعري بسبب لحن وردَ في كتابٍ له : اضرب كاتبك سوطاً[٦] وفي هذا الموضوعُ نفسهُ يقول الدكتور السامرائي : ((لقد وقف العرب من الكتاب الكريم وقفتَ المتطلعِ إلى شيءٍ لا عهدَ له به يشتملُ على أسرار هي موضعُ بلاغتهِ التي تحدى بها جمهرةَ فصحائهم فكان معجزاً لهم ، ذلك أنه من عند الله فما كان لهم أن يأتوا بمثله))[٧] .

ولو تمعنت النظر فيما ذكر أصحاب الطبقات وكُتبُ اللغةِ من ألوان اللحن التي شاعت خلال القرن الأول للهجرة لوجدناها ظواهرَ في مجالاتٍ مختلفةٍ من اللغة فبعضها كان يقعُ في مجال

الأصواتِ والتشكيل الصوتي والآخر يقع في مجال الصرفِ وصيغه والآخرُ في مجالِ الدلالةِ بوقوع كلمةٍ مكانَ أخرى في دلالتها ثم ما كان يقعُ في مجالِ النحو والإعراب ، وذلك دليل على إن مفهومَ اللحنِ كان يشملُ كل ما يخالفَ العربية الفصيحةَ التي نزل بها القرآن الكريم بغض النظر عن الاختلافات في قراءته وبغض النظر عن الاختلافات اللهجيةِ التي حاولوا إبعادها في الحكم على معظم ما رويَّ وحُكِمَّ عليه باللحنِ ومجانبةِ الصواب ، هذا من جهة ومن جهة أخرى إن هذه الشذراتُ التي رُويت على أنها اللحنُ الذي دعا إلى وضع النحوِ كانت في مواقفٍ محدودةٍ ، أما ما كان الناس يتكلمون به في حياتِهم اليوميةِ وأسواقِهم ومع أطفالِهم وفي ممازحاتِهم ولهوهِم ... هذا كلهُ لم يكن منظوراً في هذه المواقف المحدودةِ ولم يدخل في ذهنِ أصحابِ الحكمِ بتلحين هذه العباراتِ المحدودةِ[٨] .

ولأهمية القرآن الكريم ومكانته من سلامة العربية ، وقدسيته وإجلاله وتعظيمه ، لأنه كلامُ اللهِ عزَّ وجل ، واللغة التي شرفها الله بالقرآنِ الكريم ، فكانت لسانه الذي بها نطق ، فصيانتُها صيانةٌ للقرآن الكريم ، وصيانةُ القرآن ضمانٌ لسلامتها وديمومتها وحفظِها ، فهي خالدةٌ بخلودهِ ، ومصونةٌ بصيانتهِ ، ووقف الناسُ أمامهُ موقف المتأملِ والمتدبرِ ، فكانوا أمامَ كتابٍ بهر عقولَهم ، وهيمنَ على قلوبِهم ، وملأَ فراغَهم ، وشغل الكثيرين منهم عن الشعرِ وحفظهِ ، ويؤكدُ المخزومي إلى أهمية القرآنِ الكريم فيقول : ((ولا نعرفُ كتاباً أحيط بالعنايةِ والرعايةِ محفوظ على تراكيبهِ ، وكيفيةِ ترتيله بلهجاتهِ مع إتقانِ وضبطِ لا نظيرَ لهما في التلقي والتلقين ، ودقة بالغةٍ في الأخذِ والأداءِ ، وقاسَ دارسوه ما قاسوه بتعدادِ سورهِ وآياتهِ وكلماتهِ وحروفهِ مثل القرآنِ الكريم))[٩] .

وحفاظاً على سلامةِ اللغةِ العربيةِ ، وصيانتها من الخطأ ، ظهر المؤلفون والباحثون بمختلف اتجاهاتِهم واختصاصاتِهم فألف جماعة في النحو العربي وصرفهِ وَجَمعَ آخرون اللغةَ مقتفينَ مواطنِها ، فكانت حصيلةُ ذلك ظهورَ المعاجمِ اللغويةِ ، وصنفَ قومُ علمَ القراءاتِ واللهجاتِ العربيةِ واختص أُناسٌ بالإعجازِ القرآني ومجازه ، فتركوا لنا عبر العصورِ مكتبةً عامرةً غامرةً .

ويتطرق الأستاذ أحمد أمين إلى هذا الموضوع إذ يقول : ((وعلى الجملة فأن العلماء جدّوا في هذه الفروع كلها وتحمسوا لها بداعي خدمة القرآن وتبين ما فيه ، فالنحويون مثلاً اجتهدوا في إعراب القرآن ، ومن هؤلاء الكسائي والفراء والزجاج ، والبيانيون حدّوا في معرفة الأساليب التي سببت الإعجاز حتى إن عبد القاهر الجرجاني سمى كتابه (دلائل الإعجاز) ، وألف أبو بكر الباقلاني كتابه المشهور في أسباب الإعجاز ، فإن قلنا إن هذه العلوم كلها كانت لخدمة القرآن ومن أجله تمت وترعرعت لم نكن بعيدين عن الصواب))[١٠] .

كل هذه الجهود كان هدفها الحفاظ على القرآنِ الكريم ، في تذليل صعابه ، وسبر اعواره ،

وتفسير معانيه ، وشرح مفرداته ، وتوضيح مجازاته ، فكانت محصلة ذلك أن كلّ خطوة من هذه الخطوات الايجابية هي خدمة لسلامة اللغة العربية وصيانتها وحفظها ونمائها عبر العصور.

اللحن معناه ، بدايته وأسبابه :

ما معنى اللحنُ ؟

عند مراجعة معاجم اللغةِ ، نرى للحن معانيَّ متعددةٍ يذكرها صاحب اللسان[١١] الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناءِ ، والفطنةِ ، ويعدها الانباريَّ[١٢] من الاضدادِ وقد جاء في الأمالي ما نصه : ((حدثني أبو بكر عن أبي العباس عن أبي الإعرابي قال : يقال : لَحَنَ الرجلُ يلْحَنُ لحناً فهو لاحن إذا أخطأ . ولحَنَ يلْحَنُ فهو لحنٌ إذا أصابَ وفطن))[١٣] .

وهناك جماعة من الباحثين المحدثين يرون أن اللحنَ هو بمعنى الخطأ في الإعرابِ وضبطِ الحركةِ وفي أداءِ النصِ ، إذ لم يكن معروفاً قبلَ الإسلامِ ولا في صدرهِ ، ومن المحدثين الدكتور نعمة رحيم العزاوي إذ إنه يرى أن عبد الملكُ بن مروان هو أقدم من أستعمل كلمة اللحنِ بهذا المعنى ، إذ يقول في رسالته : ((إذ لا نملكُ نصوصاً أقدم منها))[١٤] ويشير إلى نصوص لعبد الملكِ استعملَ فيها اللحنَ بمعنى الخطأ ، ولا ندري كيف توفق بين هذا الرأي ، وبين نصوص عديدة وردت فيها كلمة اللحن بمعنى الخطأ قبل عبد الملك ؟ فهنالك حديثٌ يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول فيه : ((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، أنا أعربُ العربِ ، ولدتني قريش ، ونشأتُ في بني سعدِ بن بكر فأنى يأتيني اللحنُ !))[١٥] واستعملها عمر بن الخطاب وهو يمر بقوم يرمون فاستقبح رميهم فقال : ((ما أسوأ رميكم ! فقالوا : نحن قوم متعلمين ، فقال عمر (رضوان الله عنه) : لحنكم أشد علي من فساد رميكم))[١٦] .

ويتفق الدكتور صبحي الصالح[١٧] مع الدكتور نعمة العزاوي[١٨] فيرى إن استخدام اللحن بمعنى الخطأ لا تعززه الأدلة العلمية ، ويدعي أن الحديث موضوع علماً إن السيوطي ذكره في كتابه الجامع الصغير كما مرَّ مروياً عن الطبراني في الكبير بسند ضعيف ، والضعيف غير الموضوع ، ويضعف الصالح فيقول : ولفظ اللحن هنا يكاد يصرح بنفسه ، ثم يضج في الصراخ منكراً وجوده في هذا السياق ، مؤكداً إن الذين أدرجوه في الحديث غُيرُ على النحو هيابون من اللحن ، مأخوذون بسحر الأعراب ذلك بأن التاريخ (على حد قوله) ، لم يعرف اللحن في دنيا العرب بمعنى مخالف التعبير الصحيح قبل أن يختلط هؤلاء بالأعاجم ، ويأخذوا بالتفرقة بين فصاحة المنطق ، وفساد اللسان .

ويؤكد الرافعي[١٩] بأن اللحنَ لم يكنْ في الجاهليةِ البتةِ وكل ما كان في بعض القبائل من خور الطباع وانحراف الألسنة فإنما هو لغات لا أكثرُ إلا أن الدكتور محمد ضاري حمادي يفند رأي الرافعي وأن اللحن موجود إذ يقول : ((ولكن بعضهم رأى أن اللحن بمعنى الخطأ اللغوي قديم إلى الجاهلية وهذا رأي يرد على الرافعي))[٢٠] .

وإذا نفى الرافعي وقوع اللحن في الجاهلية ، فأنه لم ينفِ وجود الكلمة ، إلا أن شيوعها ، والإكثار من استعمالها كان ذلك في العصر الأموي ، عندما اضطربت السلائق ، وانحرفت الألسن عن نهجها العربي القويم وقد وردت على لسان عبد الملك بن مروان في أكثر من مناسبة ، قيل له مرة : ((لقد عجلّ إليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن))[٢١] وقال: ((اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب))[٢٢] وسبق أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩هـ عبد الملك والحجاج في استخدامه للكلمة إذ يقول: ((إني لأجد للحن غمزاً كغمز اللحم))[٢٣] .

وبما أن سبب تفشي اللحنُ ، هو امتزاجُ بعض الدماء العربية عن طريق الزواج من غير العربيات ، وظهور أجيالٍ لا تحسنُ اللغةَ العربيةَ الفصيحةَ ، مما أدى ذلك إلى اختلاط الألسن ، لذا رأت بعض القبائل العربية أن تنقطع عن الناس ولا تختلط بأحد من الغرباء من أجل أن تبقى لغتها سليمةً فصيحةً ، نقيةً صافيةً ، لا تشوبها الشوائب ، يقول الحموي : ((وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب ، وأهلُها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم – علماً أن الحموي توفى سنة ٦٢٦هـ – لم تتغير لغتهم ، بحكِم أنهم لم يختلطوا من الحاضرة في مناكحةٍ ، وهم أهلُ قرار لا يظعنونَ عنه ولا يخرجون منه))[٢٤] .

من طرائف اللحن :

وقد دونت كُتب التراثِ الذي يروي لنا قصصاً عن أخبار اللحانين وطرائقهم وردود الفعل عند سماعهم ، نروي نتفاً منها .

((دخل إعرابي السوق فسمعهم يلحنون ، فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح))[٢٥] .

((قال رجل للحسن : ما تقول في رجل ترك أبيه وأخيه ؟ فقال الحسن : ترك أباه وأخاه . فقال الرجل : فما لأباه وأخاه ؟ فقال الحسن : فما لأبيه وأخيه ؟ فقال الرجل للحسن أراني كلما كلمتُكَ خالفتني))[٢٦]

((دخل خالد أبو صفوان الحمام ، وفيه رجل مع أبنه فأراد أن يعرف خالداً ما عنده من البيان وكان خالد من فصحاء العرب ، فقال : يا بني أبدأ بيداك ورجلاك ، ثم التفت إلى خالد فقال : يا أبا

صفوان هذا كلام قد ذهب أهله ، فقال : هذا كلام لم يخلق الله له أهلاً قط))[٢٧] .

((قال بشر بن مروان (وهو أخو عبد الملك بن مروان) وعنده عمر بن عبد العزيز لغلام له : أدع لي صالحاً : فقال الغلام : يا صالحاً . فقال له بشر : ألقِ منها ألف ، فقال عمر : وأنت فزد في ألفك ألفاً))[٢٨] .

((قرع رجل على الحسن البصري فقال : يا أبو سعيد : فلم يجبه . فقال يا أبي سعيد . فقال الحسن : قل الثالثة وادخل))[٢٩] .

أثر اللحن :

اللحن لم يكن وقفاً على عامة الناس وبسطائهم ، والجاهلين بالعربية وقواعدها ، بل استهدف الشعراء والعلماء والخطباء ، ووقف النحويون بالمرصاد لهؤلاء جميعا يحصون عليهم زلاتهم ، وعثرات ألسنتهم ، ثم يصورون لهم أخطاءَهم ، فهذا عبد الله بن إسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) يخطئ الفرزدق لقوله[٣٠]

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال إلا مستحاً أو مجلفُ

فقال له : على أي شيءٍ ترفع (أو مجلف) ؟ فقال : على ما يسؤوك وينوؤك .

وساء الفرزدق كثرةَ تتبع أبي إسحاق له في تصديه وتتبعه لعثراته ، فلم يطق عليه صبراً فهجاه بقوله

فلو كان عبد الله مولى هجوته

ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : ولقد لحنت أيضاً في قولك : مولى مواليا ، وكان ينبغي أن تقول مول موالٍ .

أما في زمن الخلفاء الراشدين فكانت النظرةُ للاّحنِ قاسيةً جداً ، ومنكرةً إلى درجةٍ يستحق صاحبُها العقابَ ، كما فعل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، عندما كتب إلى أبي موسى الأشعري رسالةً يقولُ فيها : ((أن قنّع كاتبك سوطاً))[٣١] بسبب لحن وقع فيه واللحن هو : ((من أبو موسى)) ويظن الرافعي[٣٢] إن هذا أول لحن وقع في الكتابة .

هناك رواية عن سعيد بن جبير[٣٣] تقول : إن في القرآن أربعة أحرف لحن ((الصابئون))[٣٤] و ((المقيمين))[٣٥] و ((فاصدق وكن من الصالحين))[٣٦] و ((إن هذان ساحران))[٣٧] ثم يقول : حدثنا عبد الله ، حدثنا إسحاق بن وهب ، حدثنا يزيد ، أخبرنا حماد عن الزبير ابن خالد قال : قلت لأبان بن عثمان كيف صارت ((لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)) ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب ؟ قال : من قبل الكتاب ، كتب ما قبلها ثم قال : ما

أكتب ؟ قال : أكتب المقيمين الصلاة فكتب ما قيل له .

عن هشام بن عروة عن أبيه قال : سألت السيدة عائشة(عليها السلام) عن لحن القرآن ((إن هذان لساحران)) وعن قوله ((والمقيمين الصلاة والمؤتون وعن قوله تعالى ((والذين هادوا والصابئين)) . فقالت يا ابن أختي هذا عمل الكُتّاب أخطأوا في الكتاب)) .

إلا إن النحاة حققوا في مسألة لحن القرآن ، وتثبتوا من الأمر ، وجاءوا بشواهد من أشعا العرب وردت على هذه الصيغ ، والتمسوا لها تخريجات نحوية[٣٨] ففي ((المقيمين الصلاة)) انتصب على المدح عند سيبويه ، وهو في موضع خفض عُطف على ما قوله ((وبما انزل إليك)) عند الكسائي . وقيل ((المقيمين)) معطوف على الكاف في ((قبلك)) أي ومن قبل المقيمين الصلاة ، وقيل : هو معطوف على الهاء والميم في ((منهم)) وإلى غير ذلك من الآراء .

وخرجوا[٣٩] قوله تعالى ((إن هذان لساحران)) فقالوا : المثنى يعرب إعراب المقصور أي بلزوم الألف في الأحوال الثلاثة وهي لهجة عُزيت لكنانه وبني كعب وبني الهجيم ، وبكر بن وائل وبطون من ربيعة وزبيد وخثعم ومراد وعذرة .

وقالوا[٤٠] : هي لغةِ بلحارث بن كعب فهم يقولون : مررت برجلان وقبضت درهمان ، وجلست بين يداه ، وركبت علاه ، وأنشدوا للحارثي[٤١]

تزود منا بين اذناه ضربة

دعته إلى هابي التراب عقيم

وخرجوا[٤٢] قوله تعالى ((الصابئون)) مرفوع على العطف على موضع (إنّ) وما عملت فيه وخبر (إنّ) منوي به التقديم ، وقيل : الصابئون مرفوع على أصله قبل دخول (انَّ) على الجملة ، وقيل : انما رفع الصائبون لأن (انَّ) لم يظهر لها عمل في ((الذين)) فيبقى المعطوف على لغة بلحارث ، ، وقيل : (إنّ) بمعنى نعم ، وإلى غير هذه التخريجات والآراء .

وفي العصر العباسي ، ظهرت العجمة ، وتفشت في الحضر وغلبت على السليقة ، ولاسيما بعد انتشار الفتوحات الإسلامية ، وهذا ما أثار علماء العربية ، وأصبحت السلامة السلامة من اللحن لا تتهيأ إلا بالتصون والتحفظ وتأمل مواقع الكلام ، فكانوا يشبهون اللسان الفصيح[٤٣] بأنه لسان أعرابي قحّ ، وكانوا يسمون عثمان السبتي النحوي (معاصر الأصمعي) عثمان العربي من فصاحته واستقامة لسانه .

ونستدل على ضعف اللسان العربي ، وضياع العربية الفصيحة بين أهلها في هذا العصر ما قاله المأمون[٤٤] : ((أنا أتكلم مع الناس كلهم على سجيتي إلاّ علي بن الهيثم ، فأني أتحفظ إذا كلمته ، لأنه يعرف في الإعراب ، ولأنه يعرف في الإعراب ، وعلي هذا كاتب في ديوانه ، وكان

كثير الاستعمال لعويص اللغة وله نوادر عجيبة في التشادق)) .

إن السبب الذي كان يثير الهم والتفكير في وضع ضوابط لسانية هو محاولة إبعاد اللحن والخطأ عن لسان من يقرأ نصوص القرآن الكريم من جهة أو من يكتب في مجال لغته من شعر أو نثر أو رسائل ويدخل في هذا الهدف التعليمي لمن دخل في الإسلام من غير العرب ليحسنوا العربية ويقرأوا ويكتبوا بها ، وقد أطال علماء المسلمين التفكير في أمر اللحن وكيفية علاجه مجموعة من المقاييس المستنبطة من استقراء لغة العرب وطول ممارستها بحيث حكموا على المخالف لأساليبها بالخطأ واللحن ، فخافوا أن يتسرب ذلك إلى القرآن الكريم والحديث الشريف ، فأسرع المفكرون والعلماء إلى وضع قواعد يهتدي بها لحفظ اللغة من هذا الخطر الداهم ، وقد هداهم تفكيرهم إلى وضع علمي النحو واللغة ، ففزعوا إلى القرآن الكريم ضبطاً بالنقل والتشكيل حتى يضمنوا له الأداء الصحيح ، ولاسيما ممن لم يستقم لهم اللسان العربي من الناشئة الذين نشأوا في غمار الأعاجم ، كما اتجه قوم إلى الحديث يحمونه ، وآخرون إلى فتاوى الصحابة والتابعين يدونونها ، واتجه قوم إلى اللغة يحمونها ، وكانت مهمتهم جمع الكلمات التي نطق بها العرب وتحديد معانيها ، وأهتم قوم بالأدب وهو مأثور الشعر والنثر العربي يجمعونه . وهكذا كان شيوع اللحن سبباً في إثارة العلماء في كل ناحية ، وخاصة علماء اللغة والأدب[٤٥] فظهرت واضحة على لسان عبد الله بن إسحاق (ت١١٧هـ) ومعاصريه حين اتخذوا منها وسيلة لاختيار للحكم فخطأوا شعراء وفصحاء كالفرزدق ثم اتخذوا منها وسيلة لاختيار قراءات قرآنية دون غيرها .

وفي القرن الثاني تطور الفكر في المجتمع الإسلامي ووضعت المصنفات في المجالات اللغوية حتى وضع الكسائي (ت٨٩هـ) كتابه ((ما تلحن فيه العامة)) ، ووضع سيبويه كتابه . فالقرن الثاني كان مرحلة تطور للتعبير عن الظواهر اللغوية واخضاعها للدرس والتأليف فيها وهكذا تتابعت الدراسات اللغوية .

لم يكن جهد علماء المسلمين ينصب على حل مشكلة الرسم فحسب وإنما كانت هذه المشكلة تستغرق جانباً كبيراً من جهودهم لمواجهتها إلا أنهم واجهوا إلى جانبها أوضاعاً تدعو للتفكير وزيادة الجهد تشمل حلولها العربية في قراءة النص القرآني وفي القراءة والكتابة لذا نجد التأكيد على تعلم العربية والاشمئزاز من اللحن فيها[٤٦] .

وظهور مصطلح اللحن بمعنى الفساد اللغوي أو الخطأ في النطق في وقت مبكر دليل على ذلك .

وينبغي لنا هنا أن نميز بين عربية القرآن الكريم وهي العربية الموحدة الفصيحة التي تشيع لدى الشعراء والكتاب والخطباء وبين اللهجات اليومية التي يمارسها الناس في بيوتهم وأسواقهم وتدخل فيها ضروب من اللهجات العربية وما شاع من ألفاظ وصيغ غير عربية دخلت في لهجات الناس

اليومية وقضية اللهجات المختلطة والمحلية لم تكن ظاهرة جديدة بعد الإسلام وإنما هي ظاهرة يمتد بها الزمن إلى أعماق العصور التي سبقت الإسلام وهي ناتجة من تفاعل العرب مع غيرهم من الأمم كما كان هذا التفاعل بين قبائل العرب أنفسهم ولهجاتهم وتداخل هذه اللهجات التي نتجت منه هذه اللغة الموحدة التي نزل بها القرآن الكريم .

دور أبي الأسود :

يعد أبو الأسود (٦٩هـ) هذا المصطلح الأول الذي ظهرت بجهوده خطوات إصلاحية تناولت الحرف العربي علانية ثم شاعت بين الناس علماً إن الإيعاز كان من الإمام علي (عليه السلام) فقد سُئل أبو الأسود يوماً عن الذي فتح له الطريق إلى وضع علم النحو ، فقال : ((تلقيته من علي بن أبي طالب رحمه الله)) .

فالفكرة في الاصطلاح إذن ماثلة عند الإمام علي (عليه السلام) إلا أنها لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ إلا على يد أبي الأسود الدؤلي ، ومن جاء بعده من العلماء كنصر بن عاصم ، ويحيى ابن يعمر ، وأبي عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد الفراهيدي ، وغيرهم من الذين أوقفوا أيامهم لهذه اللغة ، ونذروا نفوسهم وعقولهم لخدمتها ، وتحملوا من أجلها الصعاب فجالوا بين البوادي ، وشدوا الرحال ، وسهروا الليالي الطوال ، وهذا أبو الأسود الدؤلي هو المصلح الأول الذي ظهرت بجهوده خطوات إصلاحية تناولت الحرف العربي علانية . ويذكر الانباري قصة وضع النحو فيقول : ((أول من وضع علم العربية وأسس قواعده الإمام عليّ ، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي ، يقول أبو الأسود : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فوجدت في يده رقعة فقلت : ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال إني تأملت كلام العرب فوجدته فسد بمخالطة هذه الحمراء _ يعني الأعاجم _ فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى اليَّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله أسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ به ، والحرف ما أفاد معنى ، وقال لي أنحُ هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك ، قال ثم وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب _ إن وأخواتها ما خلا _ لكن _ فلما عرضها وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه من الكفاية قال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت ! فلذلك سمي النحو))[٤٧] .

هذه هي القواعد الأولية التي وضعها أبو الأسود ، وهي تعتبر الأساس لمدرسة البصرة التي هي أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها ، إلى يومنا هذا ، وقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة

هكذا حصر علماء العربية جهودهم الأولى في علم النحو ، لأن أول فساد سري إلى العربية كان سببه عدم ضبط الحركات ، لذا انصب الجهد الأول على ضبطها ، وسمي هذا الضبط عند أهل النحو بالإعراب ، ثم استنبطت القوانين التي تحفظ العربية ، تحت عنوان _ علم النحو _ وقد سمي

النحو وحده بـ (علم العربية)[٤٨] والمشتغل به يدعى بـ ((الأديب)) .

أبو الأسود الدؤلي ودوره في وضع النحو :

إن القدماء يكادون يجمعون على إن أبا الأسود أول واضع لمبادئ العربية في البصرة ، وهو الرائد الأول في جهده الذي بذله للحفاظ على العربية وعلى النص القرآني وقراءاته في التحريف واللحن .

وضعه لنقط الإعراب :

يقول* الأستاذ يوسف ذنون ، وعبد الحي حسن الفرّماوي ، أن أبا الأسود أول من تدارك الأمر ، وفزع لوضع ضوابط واتخاذ خطوات جادة في مجال الإصلاح وعصمة اللسان من اللحن ، والقلم من الانحراف ، فخطا خطوته الأولى مستهدفاً ضبط الحرف العربي ، في الوقت الذي العرب يهتمون بالتدوين والقراءة متخذين القرآن محوراً لهم في علومه المتشعبة ، يقول الدكتور عبد العزيز الدوري : ((نعتقد إن ضبط الحرف والكتابة يتصل بصورة وثيقة بوجود خط دقيق في رسمه وضبطه ، وليس من باب الصدفة أن يبدأ دور التدريب المنظم بعد تطور الخط إلى مرحلة تمكن من ضبط الكلمة بدقة))[٤٩] ، فوضعه لنقط الإعراب كانت خطوة هامة لإيجاد الرموز التي تضبط أواخر الكلم في النص حين يؤدي على وجه الصواب وفقاً للغة القرآن التي توحد العرب عليها واجتمعوا على أهمية الحفاظ عليها ، وعلى هذا لا يمكن ضبط الخط العربي ما لم يضبط شكله وحركته ، ولأبي الأسود يعود الفضل في الإصلاح الأول على قدر اجتهاده في ذلك الوقت ، وهو عمل حدث لأول مرة ، وشكل الحرف أي تحريكه وضبطه في اللغة مأخوذ من شكل الدابة[٥٠] لأن الحروف لضبط يفيد فلا يلتبس إعرابها ، كما تضبط الدابة بالشكال خوفاً من الهروب .

وإن مصطلحات حركات الإعراب من ضم وفتح وخفض وردت في قول أبي الأسود الدؤلي لكاتبه ورأى الطريقة المناسبة في تشكيل الحرف هي استخدام النقطة ، فقال لهذا الكاتب : ((إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف _ أي بجانبه _ وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف ، وإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنةً _ يعني تنويناً _ فاجعل نقطتين ، ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف))[٥١] .

وهذا العمل الكبير قد وضع في عهد متقدم أي حوالي نهاية النصف الأول من القرن الأول الهجري ، ويعد أبو الأسود من أوائل تلامذة الإمام عليّ (عليه السلام) أخذ القرآن عليه ونصيره الموالي له فبعد وفاة الإمام (عليه السلام) لإقراء القرآن وما يتصل به ثم لأمور الشعر والأدب فكان تلامذته يأخذون عنه وفيهم نصر بن عاصم واضع نقط الاعجام قد قرأ القرآن عليه[٥٢] .

أخذ أبو الأسود يجمع ملاحظاته في الظواهر اللغوية التي سبق أن سمعها وسمعها غيره ودار الحديث فيها وفي إصلاح ما كان يحتاج إلى إصلاح ومنها ما دار فيه الحديث بينه وبين الإمام عليّ (عليه السلام) ، فقد روى الخليل بن أحمد أن أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) ((سمع لحناً فقال لأبي الأسود اجعل للناس حروفاً _ وأشار إلى الرفع والنصب والجر _ فكان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من ذلك من أمير المؤمنين))[٥٣] .

أما ما روي من وضعه أو أخذه عن الإمام عليّ (عليه السلام) أبواباً من النحو فهي من تفسيرات المتأخرين للحروف التي وردت في كلام الإمام عليّ (عليه السلام) له كانت بعد أن بلغ النحو مراحل من التطور والنضج ودونت أخباره وقضاياه وإن كان هناك من الباحثين من لم يستبعد ((احتمال وقوف الإمام عليّ (عليه السلام) أو أبي الأسود على تقسيم الكلم إلى اسم وفعل وحرف باتصالهم بالحيرة وبعلماء من أهل العراق كانوا على علم بالنحو وعلوم اللغة في ذلك العهد))[٥٤] .

وهناك من أشكلت عليه هذه الطريقة وأحس فيها شيئاً من الصعوبة والغموض والإجهاد كما يقول عبد الحفيظ أبو السعود[٥٥] بيد أنها على أية حال خير من عدم الشكل ، وتعتبر الأساس لما جاء بعدها ، وكفى بأبي الأسود فخراً أن يفتح باباً في إصلاح الحرف العربي ثم تتابعت بعده الجهود .

وزاد أهل المدينة على عمل أبي الأسود[٥٦] فكان للحرف المشدد علامة على شكل القوس ، طرفاه من أعلى يوضع فوق الحرف المفتوح وتحت المكسور وعلى شمال المضموم ، ويضعون نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت الحدبة ، والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة ، وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وابقوا على أصله مع الفتحة .

ثم زاد أتباع أبي الأسود علامات أخرى ، فوضعوا السكون جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه ، وبقيت هذه الطريقة زمن بني أمية وصدر بني العباس .

ولم يكن عمل أبي الأسود احتباطياً أو متسرعاً ، بل جاء بعد ما رأى الخطر وأحس به وكان يهدد سلامة اللغة العربية ، وأخذ يتفش في كثير من الألسنة حتى كاد يهدده في عقر داره ، فكان محفزاً له في أن يتخذه وسيلة للإصلاح ، وذكر السيرافي في أخباره : إنَّ بنتاً لأبي الأسود قالت له يوماً : ((يا أبتي ، ما أحسن السماء ؟ (برفع أحسن) قال : أي بنية نجومها . قالت : إني أردت أي شيء فيها أحسن ، إنما تعجبت ! قال : إذن فقولي : ((ما أحسنَ السماءَ !)) .

وهذه الروايات وغيرها مما ذكرته الكتب التي أرخت لظهور النحو تدور حول وضع أبي الأسود رسوم العربية وبعضها يجعل أبا الأسود أخذ شيئاً عن الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، ثم طوره ووسعه وهناك رواية جعل بعض تلامذة أبي

الأسود قام بذلك وكأنها ذكرت عرضاً مع الروايات ثم ترجع إلى أبي الأسود فتروي وضعه لنقط الإعراب[٥٧] .

طريقة التنقيط :

إن تشكيل الكلمة القائم على استخدام النقاط كان يعتمد أسلوباً مدروساً ومنظماً ، فلا يحرك ... أي بنقط _ كل حرف إذا لم يؤدِ إلى الالتباس لأن تراكم النقاط بذاتها تؤدي إلى الالتباس فمثلاً ((إذا كان الحرف مرفوعاً غير منون نقطته قدامه واحدة مثل قوله : ((الرحمنُ ، الرحيمُ)) وإذا كان منصوباً غير منون نقطته واحدة فوقه كقوله : ((الرحمن ، الرحيم)) وإذا كان مجروراً غير منون نقطته واحدة تحته كقوله : ((الرحمنِ ، الرحيمِ)) وأمّا ما كان منوناً فنقطتان مثل قوله في الرفع : ((علمٌ حكمٌ)) وفي النصب : ((علماً حكماً)) وفي الجر ((علمٍ حكمٍ))[٥٨] .

وربما تركوا في النصب لأن الألف تدل على النصب فخففوا على الإيجاز وقد أوجزوا في التنقيط ((لأنهم لو تتبعوا كما ينبغي أن ينقط عليه فنقطوا لفسد المصحف ، لو نقطوا قوله تعالى : ((مملـه)) ((فَمَثَّلَهُ)) على الفاء الميم والتاء واللام والهاء ونحو ذلك فسد ، ولكنهم ينقطون على الميم واحدة فوقها وواحدة من بين يدي اللام ، لأن اللام حرف إعراب ، وقد تنصب اللام وترفع وتجر ، وفتحوا الميم لئلا يظن القارئ إنّها ((فمُثله)) وإذا جاء شيء .

يستدل بغيره عليه ترك مثل قوله : ((قُتلوا في سبيلِ الله)) ينقط بين يدي القاف واحدة ولا ينقط على التاء شيئاً لأن ضمتها تدل على أنهم فعلوا ، وأما قوله ((قتّلوا تقتيلا)) فأنك تنقط تحت التاء واحدة لأن هذه مشددة فنفرق بين المخفف والمشدد ، فقس كل شيء بهذا إن شاء الله[٥٩] .

أما الدارسون المحدثون فقد أنكر كثير منهم معظم الروايات في وضع أبي الأسود لرسوم النحو وذلك لسببين :

أحدهم : ورود ذكر أبواب نحوية كباب التعجب والفاعل والمفعول وحروف النصب ... ثم ورود التقسيمات المنطقية كتقسيم الكلام اسم وفعل وحرف ... وبهذا يصبح النحو وكأنه قد ولد تاماً وهو ما لا يحتمله الفعل .

الآخر : إن طبائع الأشياء كما يقول الدكتور شوقي ضيف وقبله أحمد أمين لا تقر أن تكون تلك الأبواب وتلك التقسيمات في ذلك الوقت المتقدم وإنما هي متأخرة ولذا تكون تلك الروايات منحولة على أبي الأسود أو على الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)[٦٠] .

لا أرى في ذلك غرابة أو عجباً بأن يعكف الإمام عليّ (عليه السلام) ، أو تلميذه أبي الأسود الدؤلي ، العناية وضبط لغته وتحرير كلماته ، ومعرفة حروفه ، فأفكارهم لم يأتِ بسند تاريخي وإنما كان بالظن والتصور العقلي وثبتوا بأن العلوم العربية ظهرت قبل التدوين بفترة طويلة ، أن ما بين وفاة أبي الأسود وأوائل تدوين أخبار وضع النحو فترة

تزيد على قرن ونصف والتفكير النحوي لدى العرب ظهر في وقت سابق لوفاة أبي الأسود ، وكانت العلوم هذه تؤخذ عن طرق الرواية الشفوية وقد بذل العلماء عناية فائقة في ضبط الروايات وتوثيقها في مجال الحديث النبوي والقراءات القرآنية والفقه والعربية أيضاً ، فالروايات في وضع رسوم العربية دونت في وقت متأخر عن ظهورها وهذه المصطلحات والأبواب هي مما عرف في زمن التدوين بعد تطور العربية ، ونستدل على ذلك في كلام الإمام عليّ (عليه السلام) لأبي الأسود اجعل للناس حروفاً ، ولا أظن بأن المصطلحات التي وردت هي ليست موجودة في القرآن الكريم ، فلفظة حرف واسم وفعل متداولة في القرآن الكريم ، ولا أعتقد بأنها تصعب على رجل عالم صادق في العلم كالإمام عليّ (عليه السلام) ، وحين سئل أبو الأسود عمن فتح له الطريق في هذا قال : ألقي إليّ عليٌّ أصولاً احتذيت عليها ، إنه لا يستغرب شيئاً من هذا ولا هو يوحي بتفصيل أو تعريف أو تقسيم ، فما هو وجه الغرابة في حديث يدور بين الإمام عليّ (عليه السلام) وبين أبي الأسود أحد تلامذته وولاته في أمر اللحن والخوف على القرآن ولغته منه ، وما هو وجه الغرابة في أن يسأل أبو الأسود العلماء السريان في المسائل التي اتبعوها لحفظ لغتهم ليفيد من تجارب سبقت في هذا المضمار ؟[٦١] .

وليس غريب أن يقف الإمام عليّ (عليه السلام) أو أبو الأسود على تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف ، وذلك بسبب اتصالهم بالحيرة وبعلماء من أهل العراق كانوا على علم بالنحو وعلوم اللغة في ذلك الوقت .

ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم دور فاعل في اتخاذ هذه الخطوات في الحفاظ على سلامة اللغة العربية والابتعاد عن اللحن ، حيث يقول شوقي ضيف : ((ومن أهم ما دعم العربية القرآن الكريم ، فكان الخروج عليها يعد مروقاً من الإسلام ، ومحاولة لتفضه ، وبذلك ظلت العربية شامخة حتى في المحيط الأعجمي وبين الزنادقة وأنصار الشعوبية))[٦٢] .

أما هند حسين فتقول في رسالتها : ((ولهذا فلا عجب أن يعكف المسلمون على دراسة القرآن ، بضبط لغاته وتحرير كلماته ، ومعرفة حروفه وعدد كلماته وسوره ، وأحزابه وإنصافه وأرباعه وعدد سجداته))[٦٣] .

وظل إعراب القرآن ينمو في النقط وكيفية وضعه وذكر المسائل المتعلقة به إلى ربط الظواهر تلك بتغير أواخر الكلم ومواضع تلك الكلم ثم محاولة استقراء ما تشابه من هذه الظواهر والحركات وإطالة النظر فيها وقياس بعضها على البعض الآخر ، حتى إذا وصلنا إلى أبن أبي إسحاق وهو من الجيل الثالث بعد أبي الأسود وعُدَّ أول من سلك طريق النحو بالمعنى العلمي ، نجد ذلك يظهر بالتزامه بقراءات وتعليل ذلك ثم محاولة

تطبيق القياس على الشعر كما فعل مع أبيات للفرزدق حتى قيل فيه أنه ((أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل))[٦٤] .

وقال ابن سلام : ((سمعت أبي يسأل يونس عن أبن أبي إسحاق وعلمه قال : هو والنحو سواء أي هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ قال : لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه لضحك به ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظره ونظر نظرهم كان أعلم الناس))[٦٥].

فالملاحظات والأنظار النحوية كانت تسجل منذ أبي الأسود لئلا تنسى أو ليستذكرها الشيخ حين يجمعه المجلس بتلامذته أو أن تلامذته يسجلونها حين يأخذونها عن شيخهم لئلا ينسونها وهذا أمر ليس فيه ما يدعو إلى الشك .

وهذا أبن النديم والذي يعد من الثقات في قوله : ((ورأيت ما يدل على إن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهي أربعة أوراق احسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود (رحمه الله) بخط يحيى بن يعمر وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوي ...))[٦٦] .

ولعل أول نحوي حقيقي نجد عنده بداية هذا العمل هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت١١٧هـ) . يقول أبن سلام بعد أن ذكر تلاميذ أبي الأسود الدؤلي ((ثم من بعدهم عبد الله أبن أبي إسحاق الحضرمي ، فكان أول من بعج النحو ، ومد القياس والعلل ، وأبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) وبقى بعده طويلاً وكان أبن أبي إسحاق اسند تجريداً للقياس ، وكان أبو عمرو أوسع علماً بكلام العرب))[٦٧] .

وتشير هذه الرواية مرة إلى كلام العرب والعلم به بجانب بعج النحو ومد القياس . ومعنى هذا أن دراسة العربية وتحليلها كانت حتى نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني عبارة عن ملاحظات متناثرة ، ولكن عندما جمع كلام العرب بدأت المرحلة العلمية الحقيقية في الدراسة النحوية واللغوية بالنظر في هذه المادة اللغوية ، ويبدو أن الحضرمي كان من أوائل الذين قاموا بهذا العمل . ومن الصعب أن نفهم من هذه الرواية مدلول كلمة ((بعج)) أما القياس فواضح من الخصومة التي نشبت بين الحضرمي والفرزدق (ت١١٠هـ)[٦٨] أن الحضرمي كان يفهم من معنى القياس الاطراد والثبات للقاعدة الذي كشف عنها استقراء المادة اللغوية وتصنيفها . ويبدو أن التعليل لهذه القواعد أخذ سبيله إلى الظهور في هذه الفترة .

لذلك تنسب الرواية إلى عبد الله بن أبي إسحاق أنه كان أول من مد القياس والعلل ، ولذلك كان يعطي أهمية للمستوى النحوي أكثر من أي مستوى آخر من مستويات التحليل اللغوي . يدل على ذلك الرواية التي تقول أن تلميذه يونس أبن حبيب (ت١٨٩هـ) سأله يوماً عن كلمة ((السويق)) بالسين هل ينطقها أحد من العرب بالصاد ، أي ((الصويق)) فقال له الحضرمي نعم، عمرو بن

تميم تقولها . ثم أضاف ((وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرد ويتقاس))[٦٩] .

فإذا لاحظنا بعض المصطلحات مثل ((باب)) و ((يطرد)) و ((يتقاس)) ، أدركنا أن الحضرمي كان يتحدث مع تلميذه عن مضبوط خاضع للتصنيف والتجريد ، كما ندرك أيضاً أنه يدعو تلميذه إلى دراسة القواعد العامة المطردة لا اللهجات . وكل ذلك يضع بيد أيدينا ، عدة حقائق هامة عن الدرس اللغوي عند العرب في نهاية القرن الأول الهجري تتمثل فيما يلي :

١- أن القراء هم أول من تصدى للدراسة اللغوية بحكم طبيعة عملهم في إقراء الناس والعناية بالنص القرآني .

٢- أن التحليل اللغوي التفت إلى بعض الظواهر الصوتية ممثلة في حركات الإعراب والهمز وغيرها .

٣- أن العناية بوضع القواعد النحوية كان يقوم على أساس وصفي يتمثل في جمع المادة اللغوية وتصنيفها ، ثم استنباط الأحكام وتعميمها وفق أصول نظرية محددة .

٤- أن العناية باللهجات واختلافها واكب الدراسة النحوية .

٥- أن الأمر لم يقف عند حدود تتبع الشعراء وردهم ، بل أصبح بين يدي هؤلاء العلماء مادة عامة تعقد حولها حلقات الدرس والمناظرات[٧٠] .

وتم كل ذلك في البصرة التي كانت بحكم موقعها الجغرافي على الخليج العربي ملتقى طرق وحضارات ، وقد أشارت الروايات التاريخية إلى سبق البصرة في وضع قواعد العربية إشارات واضحة ونصت على ذلك بعبارات مختلفة . يقول أبن سلام (ت٢٣٢هـ) : ((وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب عناية))[٧١] .

على هذه الصورة بدأ التفكير اللغوي عند العرب بمعناه العلمي من حيث جمع المادة وتصنيفها واستنباط القواعد وتحكيمها فيما يقول أبناء اللغة ، وكان عبد الله بن إسحاق الحضرمي من أوائل العلماء الذين تصدوا لهذا العمل وشاركه في ذلك تلميذه أبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ) غير أن التلميذ سرعان ما خالف أستاذه بحكم معرفته الواسعة بالمادة اللغوية وطبيعة كلام العرب ، ففي الوقت الذي كان الحضرمي يتشدد فيه في إجراء القياس عل كل استعمال ، ويهما أو يخطئ كل ما عداه ، كان أبو عمرو يقيسس على الأشيع والأكثر في كلام العرب ، وما خالف ذلك لا يهدره ولا يخطئ قائله ، وإنما كان يعترف به كالاستعمال من استعمالات أبناء اللغة ينبغي احترامه[٧٢] .

ولكن ما أن يصل القرن الثاني إلى منتصفه حتى نرى كتباً تؤلف ومذاهب ينفرد بها بعض العلماء ، فقيس بن عمر الثقفي (ت١٤٩هـ) تنسب له كتب الطبقات كتابين في النحو أحدهما يسمى الجامع والآخر يسمى الإكمال ، ولكن أحداً لا يدري شيئاً

عن هذين الكتابين إلا ما أشارت إليه بعض الروايات من أن الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) قد أطلع عليها ووضعها في بيتين من الشعر[٧٣] .

وكان عيسى بن عمر قد أخذ النحو عن أبي إسحاق الحضرمي ونهج نهجه في تعميم القياس وتجريده ، وتخطئة المخالفين له ، اسناداً إلى القواعد التي استنبطوها . يقول أبن سلام : ((كان أبو عمرو بن العلاء أشد تسليماً للعرب ، وكان أبن أبي إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهما))[٧٤] ، أما يونس بن حبيب (ت١٨٢هـ) فقد أخذ عن أبي عمرو بن العلاء ، وكانت له مذاهب وأقيسه تفرد بها[٧٥] .

وهكذا نجد أن التفكير اللغوي عند العرب رغم هذه الروايات القليلة كان مهيأً لظهور أكبر علماء العربية وأبعدهم أثراً في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب ، بما هيأ من مادة لغوية ومنهج في استنباط القواعد ، وهما الخليل بن أحمد (ت١٧٥هـ) وتلميذه سيبويه (ت١٨٠هـ) .

أما الخليل فقد كان الغاية _ كما يقول السيرافي _ في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ، وهو أول من استخرج العروض ، وحصر أشعار العرب ، وعمل كتاب العين[٧٦] .

أما سيبويه فهو صاحب أول مؤلف في النحو العربي يصل الينا . ولولا هذا الكتاب ما استطعنا أن نتصور النمو الحقيقي الذي بلغته الدراسات النحوية واللغوية العربية في خلال قرن واحد تقريباً . وإذا صح أن تعد كتاب سيبويه محصلة هذه الجهود العلمية التي بذلت خلال هذا القرن ، وأن الخليل هو صاحب التصور العام للنظرية اللغوية التي أداها تلميذه عنه . يقول السيرافي : ((كل ما قال سيبويه سألته ، أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل))[٧٧] .

وبهذا نستطيع القول ، بأن النحو في هذه المرحلة ، أصبح له هيكلاً قائماً بنفسه ، وبكل مستوياته اللغوية وأسسه وأصوله . يشهد بذلك الكتاب الذي عزى إلى سيبويه وما احتواه من مادة غزيرة شملت موضوعات النحو العربي وقضاياه كما شملت موضوعات الصرف وقضاياه كما شملت دراسة الأصوات اللغوية سواء على المستوى الفومونيكي أو الفونولوجي ، كما يحتوي على دراسات دلالية . ومما يؤكد ذلك أننا نجد هذا المفهوم الشامل للنحو عند كثير من النحاة الذين ألقوا في النحو بعد سيبويه ، مثل المبرد (ت٢٨٥هـ) وغيره من علماء العربية الذين وصلت مؤلفاتهم الينا[٧٨] . لقد كان ((الكتاب)) أول كتاب جامع لقواعد النحو وأصوله ، نقل سيبويه فيه أقوال الخليل وآراءه وسجلها . ويرى الدكتور حسن عون أن سيبويه كان لديه تخطيط منهجي عام للدرس النحوي طبقه في تأليف كتابه ، يتمثل في مباحث رئيسية ثلاثة هي مبحث المفرد ، ثم مبحث الجملة ، ثم مبحث المفرد مرة أخرى . لا من حيث جوهره وشكله

الإعرابي ، ووظيفتهُ في التركيب وإنما من حيث الصيغة والبنية[٧٩] .

خاتمة ونتائج :

وبعد ، فقد حاول هذا البحث أن يتبع بداية اللحن وخطره على اللغة العربية وسلامتها ، وبداية التفكير اللغوي العربي بميادين ومناهج من التفكير في اللغة والبحث ، وقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الفكر اللغوي العربي بظهور عالم كبير ألا وهو أبو الأسود الدؤلي (ت٦٧هـ) ، وقد أجمعت الروايات التاريخية على أن العرب قد أحسوا في نحو منتصف القرن الأول الهجري بخطر يهدد لغتهم ، وأمتد هذا الخطر إلى النص القرآني الكريم ، وذلك بسبب شيوع اللحن على ألسنة الأعاجم والمولى الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح ، وقد تعداهم هذا اللحن حتى وصل إلى أبناء العرب نتيجة لمخالطتهم لهؤلاء ، وخاصة في قصور الخلفاء حيث الأمهات الأجنبيات والخدم والمجلوبين ، مما أوجب أهل اللغة في التصدي لهذا الخطر المحدق فتحركوا لدرء الخطر عن القرآن الكريم واللغة العربية . كذلك لحاجتهم الماسة إلى وضع قواعد وقوانين تساعدهم في توجيه الناس في الكلام.

إذ يعد اللحن السبب الأول قديماً وحديثاً في جعل العلماء النظر في اللغة والحفاظ على سلامتها وديمومتها . وأن اللحن كان السبب الأول الذي دعى إلى التفكير في اللغة . وأول هذه الأسباب فهم القرآن الكريم باعتباره مصدراً للأحكام الشرعية التي تنظم حياة المسلمين الدينية والاجتماعية والاقتصادية . ومن الأسباب التي دعت إلى ذلك فهو وضع القواعد لتعلم اللغة العربية ، وأن يعصم اللسان من الخطأ ولاسيما عند هؤلاء الأعاجم والمواليين ، الذين أقبلوا على تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة الفاتحين وأنها لغة الدين الإسلامي العظيم ولغة القرآن الكريم .

كل هذه الأسباب أدت إلى فزع العلماء لوضع ضوابط واتخاذ خطوات جادة في مجال الإصلاح وعصمة اللسان من اللحن ، والعلم من الانحراف ، فخطا خطواته الأول مستهدفاً ضبط الحرف العربي ، في الوقت الذي أخذ العرب يهتمون بالتدوين والقراءة متخذين القرآن الكريم محوراً لهم في علومه المتشعبة.

وخلاصة القول : يمكن أن نعرف اللحن بأنه : خروج الكلام عن مجرى الصحة في معنى الكلمة أو بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع بين العامة من الناس ويتسرب بعد ذلك إلى لغة الخاصة .

الهوامش :

[١] سورة الحجر : الآية ٩ .

[٢] طبقات النحويين واللغويين : ١ .

[٣] انظر : المزهر للسيوطي : ٢١١/١ .

[٤] الخصائص لأبن جني : ٨/٢ .

[٥] العربية بين أمسها وحاضرها : ١١ وينظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ٣٩٦/٢ .

[٦] مراتب النحويين لأبن الطيب اللغوب : ٦ .

[٧] العربية بين أمسها وحاضرها : ١١ .

[٨] انظر : موضوعات في نظرية النحو العربي : ١٨ .

[٩] مدرسة الكوفة : ٣٤ .

[١٠] ظهر الإسلام : ١٥/٢ .

[١١] اللسان المجلد الثالث عشر : ٣٧٩-٣٨٨ .

[١٢] الاضداد : ٣٢٨ .

[١٣] الأمالي : ٥/١ .

[١٤] أبو بكر الزبيدي الاندلسي : ٣٢٢ .

[١٥] الجامع الصغير : ١٠٧/١ وانظر : المزهر : ٣٩٧/٢ .

[١٦] المزهر : ٣٩٧/٢ .

[١٧] الاضداد : ٢٤٤ .

[١٨] دراسات في فقه اللغة : ١٢٧ .

[١٩] تاريخ آداب العرب : ٢٣٥/١ .

٢٠ حركة التصحيح اللغوي : ١١ .

[٢١] العقد الفريد : ٤٧٩ .

[٢٢] العقد الفريد : ٤٧٨ .

[٢٣] عيون الأخبار : ١٥٨/٢ .

[٢٤] تاريخ آداب العرب : ٢٤٧/١ .

[٢٥] عيون الأخبار : ١٦٠/٢ .

[٢٦] أخبار الحمقى : ١٢٠ .

[٢٧] أخبار الحمقى والمغفلين : ١١٩ .

[٢٨] البيان والتبيين : ٢١٣/٢ .

[٢٩] اللغة الخالدة : ٣٥ .

[٣٠] نزهة الالباء في طبقات الأدباء : ٢٤ .

[٣١] مراتب النحويين : ٢٣ .

[٣٢] تاريخ آداب العرب : ٢٣٧/١ .

[٣٣] كتاب المصاحف : ٣٤ .

[٣٤] سورة المائدة : الآية : ٦٩ .

[٣٥] سورة النساء : الآية : ١٦٤ .

[٣٦] سورة المنافقين : الآية : ١٠ .

[٣٧] سورة طه : الآية : ٦٣ .

[٣٨] مشكل إعراب القرآن : ٢١٢ و املاء ما من به الرحمن : ٢٢٢/١ .

[٣٩] الأدب الجاهلي : ١٦٠ .

[٤٠] تأويل مشكل القرآن : ٣٦ .

[٤١] النوادر : ٥٨ .

[٤٢] مشكل إعراب القرآن : ٢٣٢ .

[٤٣] تاريخ آداب العرب : ٢٤١/١ .

[٤٤] تاريخ الأدب العربي : ٢٤١/١ .

[٤٥] انظر : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : ١٢٣/٢ .

[٤٦] انظر : أخبار النحويين البصريين للسيرافي : ٦/٢٣ و الخصائص : ٨/٢ و الصاحبي لأبن الفارس : ٦٦.

[٤٧] نزهة الالباء في طبقات الأدباء : ٧ .

* انظر : كتاب اللغة العربية والوعي القومي (مجموعة بحوث) بحث يوسف ذنون .

[٤٨] البيان العربي : ٤ .

[٤٩] الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق : المقدمة ب .

[٥٠] صبح الأعشى : ١٦٠/٣ .

[٥١] أخبار النحويين للسيرافي : ١٢-١٣ و الفهرست : ٤٦ و انباه الرواة : ٤/١ .

[٥٢] نزهة الألباء : ٢٤ .

[٥٣] مراتب النحويين لأبي الطيب : ٦ .

[٥٤] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٤٩/٩ .

[٥٥] الخليل بن أحمد ، عبد الحفيظ أبو السعود : ١٠٩ .

[٥٦] أخبار النحويين : ١٤ .

[٥٧] انظر : كتاب الفهرست : ٦٥-٦٦ .

[٥٨] كتاب المصاحف : ١٤٥ .

[٥٩] كتاب المصحف : ١٤٤ .

[٦٠] انظر : ضحى الإسلام : ٢٨٥/٢ و انظر : المدارس النحوية : ١٣ .

[٦١] انظر : موضوعات في نظرية النحو العربي ودراسات موازنة بين القديم والحديث .

[٦٢] الفن ومذاهبه : ١٢١ .

[٦٣] النظرية النقدية : ٦٣ .
[٦٤] طبقات الزبيدي : ٢٥ .
[٦٥] طبقات فحول الشعراء : ١٤-١٥ .
[٦٦] الفهرست لأبن النديم : ٦٦-٦٧ .
[٦٧] طبقات فحول الشعراء .
[٦٨] طبقات فحول الشعراء : ١٤ .
[٦٩] المرجع السابق : ١٥ .
[٧٠] انظر : أبن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ١٤ و انظر : موضوعات في نظرية النحو العربي دراسات موازنة بين القديم والحديث : ٣٦ .
[٧١] طبقات فحول الشعراء : ١٢ .
[٧٢] الزبيدي ، طبقات النحويين : ٣٥-٤٠ .
[٧٣] أخبار النحويين البصريين : ٢٥ .
[٧٤] طبقات فحول الشعراء : ١٥ .
[٧٥] أخبار النحويين البصريين : ٢٧ .
[٧٦] أخبار النحويين البصريين : ٣٠ .
[٧٧] المزهر : ٤٠٥/٢ .
[٧٨] انظر : سيبويه ، الكتاب ط عبد السلام هارون : ٣٦٤/٢ .
[٧٩] انظر : تطور الدرس النحوي : ٤٢ .

المصادر :

القرآن الكريم .
١- أبو بكر الزبيدي الأندلسي وآثاره في النحو واللغة ، الدكتور نعمة رحيم العزاوي ، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧٥م .
٢- أخبار الحمقى والمغفلين ، أبو الفرج عبد الرحمن ((ابن الجوزي)) المكتب النجاري للطباعة والنشر ، بيروت .
٣- أخبار النحويين البصريين ، أبو السعيد السيرافي ، تحقيق : محمد خفاجي ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ١٩٥٥م .
٤- الأدب الجاهلي ،
٥- الاضداد ، محمد بن القاسم الانباري ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٦٠م .
٦- الامالي ، أبو علي القالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٧- املاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جمع القرآن ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٧٠م .
٨- انباه الرواة على انباه النحاة ، جمال الدين القفطي ، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٥٠م .
٩- البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصدرها الكبرى ، الدكتور بدوي ، طباعة دار العودة ، بيروت ١٩٧٢م .
١٠- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٨م .
١١- تاريخ أدب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٧٤م .
١٢- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبد الحميد النجار ، دار المعارف بمصر .
١٣- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبد الحميد النجار ، دار المعارف ، مصر .

١٤- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الدكتور حسن إبراهيم حسن ، طبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٣٥م .
١٥- تأويل مشكل القرآن ، أبن قتيبة ، تحقيق : أحمد صفر ، ط١ ، ١٩٥٤م .
١٦- تطور الدرس النحوي ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٠ .
١٧- حركة التصحيح اللغوي الحديث ، محمد ضاري هادي ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨١م .
١٨- الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت .
١٩- الخليل بن أحمد ، عبد الحفيظ أبو السعود ، شركة الاتحاد للتجارة والطباعة والنشر ، القاهرة .
٢٠- الخليل بن أحمد الفراهيدي ، اعماله ومنهجه ، مهدي المخزومي ، مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٦٠
٢١- دراسات في فقه اللغة ، الدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠م .
٢٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، أبو العباس القلقشندي ، دار الكتب ، القاهرة ١٩١٤م .
٢٣- طبقات النحويين واللغويين ، أبو بكر الزبيدي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤م
٢٤- طبقات فحول الشعراء ، شرحه : محمود محمد شاكر ، القاهرة ، دار المعارف ، ذخائر العرب (٧) ١٩٥٢م .
٢٥- ظهر الإسلام ، أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧م .
٢٦- العربية بين أمسها وحاضرها ، الدكتور إبراهيم السامرائي – دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٧٨م .
٢٧- العقد الفريد ، ابن عبد ربّه الاندلسي ، القاهرة ١٩٤٠م .
٢٨- عيون الأخبار ، ابن قتيبة ، القاهرة ، ١٩٢٨م .
٢٩- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٩م .
٣٠- الفهرست ، ابن النديم ، تحقيق : رضا تجدد طهران ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .
٣١- الكتاب ، سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق : عبد السلام هارون ، القاهرة ، دار القلم ، الجزء الأول ١٣٨٥هـ – ١٩٦٩م ، دار الكاتب العربي ، الجزء الثاني ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م
٣٢- كتاب المصحف ، أبو بكر عبد الله بن أبي داؤد السجستاني ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
٣٣- اللغة الخالدة ، أمين عيروض ، مطبعة الشرق ، حلب .
٣٤- المدارس النحوية ، شوقي ضيف ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

٣٥- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو : مهدي المخزومي ، بغداد ١٣٧٤هـ ، ١٩٥٥م .

٣٦- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، مهدي المخزومي ، بغداد ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

٣٧- مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، مكتب نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٥م .

٣٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد أحمد جاد المولى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة .

٣٩- مشكل إعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب ، تحقيق : حاتم الضامن ، منشورات وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٥م .

٤٠- نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، أبو البركات الانباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧م .

٤١- النظرية النقدية عند العرب ، الدكتورة هند حسين طه ، المطبعة الوطنية ، عمان ١٩٨١م .

٤٢- النوادر ، أبو سحل الإعرابي ، تحقيق : الدكتور عزة حسن ، مطبعة المجمع العلمي العربي ، دمشق ١٩٦١